Bibliotheca Alexandrina
0112774

دوبيس

والأوائل السابقات

دار الآداب

صياغة نهائية

أدونيس

المطابقات والأوائل

(صياغة نهائية)

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

طبعة جديدة
١٩٨٨

قصيدة ثمود

I

. . . رجعَ القول إلى أحوال ثمودٍ/

II

خرجَتْ من أصداف الماء وجاءتْ
في ليلٍ
بردَى زوجٌ، والأشجارُ ثيابٌ/
لم أعرفْها.
أَلوَردُ يدلّ عليها
والفجر الصّاعدُ في درجات الشمس يدلّ عليها
وشَفافية الحزْنِ المرسوم على قسمات الناس، تدلّ عليها/
لم أعرفها.

وأنا الطّالعُ من أغوارٍ لا أذكرها، أذكر: في خطواتي
كرَزٌ وحشيٌّ، في خُطواتي
كوكبُ جَمْرٍ/

والكرزُ الوحشيُّ يدلّ عليها
والجمرُ يدلّ عليها/
لم أعرفْها.

ما أعمقَ جهليَ ـ لم أعرفْ
كيف أعمِّر من أشلاء الآخر بيتاً
كيف أُجاهر أنّ الدمية حُبلى بالأطفالِ،
وأنّ الدِّفلى تمْرُ
لم أعرفْ

كيف أعاشرُ أوراقاً تُسقى
لبناً تحتَ خيام قُرَيْشٍ
وتُوَزَّعُ بين قصور أميّةْ
عسَلاً،
وتقول: الصحراءُ الماءْ
بدءاً من هذي الصّحراءْ
والأشياء المرئيّة ليست مرئيهْ، ـ
لم أعرفْ

كيف أدافعُ، فيما كنتُ أموتُ/
استسلمتُ كأنيَ طِفلٌ.
هل يُسعفني هذا الجهل؟ ولكن

من أين أجيءُ، وكيف أجدّد للكلماتِ الجنسَ، وللّغة الأحشاءَ

لأقولَ الأشياءَ؟

. . . أحوال ثمودٍ/

تَعَبَ الماءِ،
القولَ التّائهَ مثلَ ضبابِ
والعملَ التائه مثلَ ضبابٍ،
وأقولَ المقهورينَ ـ البؤسَ الرّابضَ في أعينهمْ،
والفرَحَ الجامِحَ فِي أيديهم.
وأقولَ الوَلَهَ الإعصارَ، الشرقَ
اللاّبسَ وجهَ البحرِ/
أقولَ تفجّر أيّامي ـ

جرحاً
يكبر بين العالم والكلماتِ، وأمحو
ما قرأته أحلامي،
وأقولَ تباريحي ـ
يأسَ العصفورِ،
ولكنْ،
من أين أجيءُ، وكيف أُجدّد للكلماتِ الجنسَ، وللّغة الأحشاءَ

لتقولَ الأشياءَ؟

III

مهيار يقولُ: «الذكرى لا تجدي».
ويقولُ: «الرّيح تؤاتي سُفُني،
حين يكون البحر بعيداً»/
أشهد أنّ الذكرى لا تجدي
لكن،
أشعلتُ مصابيحَ الذكرى
لتكونَ لَكَ الصّوتَ المرئيَّ،
وزهراً
أجنيه، باسمكَ، من بستان الجُرحِ، ونجْماً
يحنو كجبينِ امرأةٍ
تبكي في شُبّاكٍ/

ورأيتُكَ تنأى...
سمّيتَ الأفقَ، رسمتَ الدربَ، وسرتَ حنيناً نحو الأقصى،
أحبابُكَ، مثلكَ، ساروا
أعداؤكَ، مثلكَ، ساروا
يفتتحونَ سهوباً أخرى ببريقٍ آخَر، لكن

في الجهة الأكثر ظِلّاً من غاباتكَ ساروا،
لكن.
في ضوئِكِ ساروا/
سأقول لضوئِكَ أن يلقاني
في كلّ مدارِ
سأقولُ له: استظهِرْ حركاتي واستبْطِنْ أغواري
. . . في أحوال ثمودٍ/

IV

. . . أحوال ثمودٍ/
١ ـ «هل هذا الكوكب أنثى، أم ذكرٌ؟
أم تلك قبائل ترشق في الصحراء سهاماً فتعود ذراعاً أو رأساً؟».

٢ ـ «إن كان صديقك يقرأ أفلاطون، تنبّهْ واحذرْ
قل: كلا: لا أعرفُه،
فغداً، أو بعد غدٍ،
سيُقاد إلى سيفٍ،
أو جبٍّ. . .»

٣ ـ «أعطوني.
ـ ماذا يفعل؟

ـ يقتل، كلَّ مساء، فَجْراً

٤ ـ «ما أطوع هذا الأفَّاكَ،
الطالع من تاريخ القتل،
الضارب في أحوال ثمودٍ».

٥ ـ «جاء الناقد يسأل: كيف يكون الوزن، وكيف يكون
النثر؟ ويحيا
من بيع الألقاب إلى شعراءٍ،
يسأل كلٌّ منهم: كيف يكون الوزن، وكيف يكون
النثر، ويحيا في تابوتٍ...؟»

٦ ـ «أحوال ثمودٍ،
تتأسَّس في دكّانٍ:
«تاجرْ، واستعصمْ بالله، ولا تتسيَّسْ...».

٧

هوذا **الدفتردارُ** يجيءُ/حشودٌ
والأبواق ارتجلت لحناً/
... شهدوا أنّ التّاريخ امرأةٌ
صلعاءُ بعينٍ واحدةٍ
وبرأسٍ مفتوقٍ.

شهدوا أنّ التاريخَ تقمّص ضبّاً.
شهدوا أنّ القنَّبَ في الشرفات خيولٌ
والغيمَ وراء السدّة نخلٌ.

شهدوا أنّ الناس رفوفٌ من كتّانٍ
والرمّل سَحابٌ/

مَن يسأل: كيف؟ لماذا؟

يا هذي الجدران المنهارةُ من أسوارٍ تسْترشدها أسوارٌ،
كوني أكثرَ صمتاً
من أجل معاولَ أُخرى،
جَرَّافاتٍ أُخرى.
يا هذي الحمم المقذوفة من أحشاءٍ تتقاسمُها أحشاءٌ،
كوني أكثر صمتاً،
يا هذا اللّجَبُ النازفُ من أصواتٍ تتخطّفها أصواتٌ،
كن أكثر صمتاً،

أكثر صمتاً ـ
من أجل لُغاتٍ أخرى
أزمنةٍ أُخرى. . .

هيَ ذي أيّامٌ قَصَبٌ والجَوفُ هواءٌ/
ماذا يفعلُ هذا الرّائي
لجموعٍ
سَوّاهم
مثلَ هباءٍ
ساواهم بالآلات وبالأدواتِ شِعارٌ
واسْتتبعَهُمْ ظلٌ؟
- من يتقدّمُ؟
- مُتّهمونَ، الصّمتُ لهم زهَرٌ ونوافِذُ
لكنّ الوقتَ كجمرٍ،
ويمرّ بطيئاً،
والألوانُ هي الألوانُ/
شقاءُ

أن تتجدّد أو تتغيّر أو أن ترغبَ. . . /أعطيني زندكِ، يا هذي
الأرضُ المسبيّةُ، وارْميني في موج الأسرار، ولكن
دون حجاب،
كي يرْقُمَنا
ويصوّرَنا
ويُوشّينَا
ويَشي بمدانا

ويَشي بخُطانا
نسّاجُ أو نمّامٌ
كي نَسْتوشيَ جرْيَ الريحِ /
استوْصيْنا
خيراً، بِنباتٍ يَنْمو/

ـ مَن هذا السائر، مطروداً
ويطاردُه شبَحٌ تنّينيٌّ، وتطارده تعويذاتُ؟

ـ تلميذٌ

يجهلُ كيف تصير اللفظةُ تمثالاً
يجهل كيف يُربّي ألفاظاً
كأرانبَ أو كدجاجٍ . . . /
هَوْلٌ
أن تتجدّد أو تتغيّرَ أو أن ترغبَ/هذا
وجهيَ في لُجّيٍّ
مثل عُقابٍ
يتطوّحُ
في
مَهْواةٍ . . . /لاقيني، وأعيديني

يا هذي الأرض. . . /
أغيّرُ هذا الزّرعَ، وأرقدُ هذي الليّلةَ
في أحضانٍ لا أعرفُها
وأسافر في مجهولٍ
يتكشّف عن جنسٍ سرّيٍّ
يتكشّفُ عن لغةٍ سرّيه
تعرف كيف تترجم هذي الضوضاء الكونيّهْ/
أحوالَ ثمودٍ.

VI

لكن،
هوذا الشاعر ـ كان ينامُ غريباً
والفجرُ غزالٌ
جسد الأرض يداعبهُ
والشّمس تخيط له
ثوباً قَمْحيّاً/

ـ ماذا يفعلُ؟
ـ يُلقي عن كتفيه النّومَ، ويمضي. . .
هوذا يمضي
ـ ماذا؟ خانت عينيه الأشياء؟ رأى

قدمَ النّورسِ ضِفدعةً؟
ورأى الزهرةَ وجهَ عجوزٍ؟

ـ ماذا يفعل؟

- يرجو
وجهَ غزالٍ آخرَ،
وجهُ الأرض يرافقهُ
والشمسُ تخيط له
ثوباً قمْحيّاً/

هوذا الآنَ يسافرُ في قنديلٍ مكسورٍ/يسمع همْساً:

«لا تأملْ
ليس النجم الطالع إلا رسماً
يتكرر، والألوان هي الألوانُ»

الآنَ يقارنُ بين الأشياءْ

ويقول: الأشياءُ هي الأشياءْ
بدءاً من هذي الصحراءْ.

ـ ماذا يفعل؟

- يرجو

وجه غزالٍ اخرَ،
وجهُ الأرض يرافقه
والشمسُ تخيطُ له
ثوباً قمْحيّاً. . . /

. . . والأرضُ تعيِّد عيد الرّمل، وماذا
يُجدي هذا الرأسُ النّافرُ من أنبوبٍ
في نَقّالة أفيونٍ،
في عُرُسٍ للآلاتِ؟ وماذا
يجدي هذا الطّوقُ، وهذا الجسرُ، وماذا
يعرف هذا السائرُ
من أبعاد المجهولِ؟/
سلاماً، يا أحزاني

- (أحزانيَ ليست أحزاني
هي جرحٌ ينزفُ من تاريخ الإنسانِ
هي أرضٌ تُرفع قُرْباناً
للظُّلماتِ وللطّغيانِ)

والأرض تعيِّد عيد الرمل، وماذا
يجدي هذا الرأس السّاكن في أنبوبٍ؟

ألهذا، تسألني كلماتي:
ما هذا التاريخ، أجرحٌ أم سكّينُ؟
وهل الكلماتُ سلاسلُ أم يقطينُ؟
ألهذا، لا يتركني رفضي
ودمشق الأخرى لا تتركني.../
تسكنُ في أعضائيَ ـ نامي
لكِ مُلكي: هذا الدفترُ، هذا الحِبْر،
وهذا الثوبُ العُنّابيُّ،
ونامي

حتى يأذنَ وقتٌ
أعني
حتى يأتيَ فجرٌ آخرُ
أعني
ماتت ـ

ماتت أزمنة الكلمات/الوَحْيِ، وماتَتْ
نبرة هذا العصرِ، وماتت
أحلام الرّيفِ، وماتَت
شهواتُ المُدنِ

ولهذا، لا يتركني رفضي

ودمشق الأخرى لا تتركني،

ولهذا،
أحمل بين يديَّ، وبين خطايَ، بذوراً
والكلماتُ هي الكلماتُ: حمائمُ، حيناً
وصقورٌ، حيناً
وخمائرُ، حيناً

ولهذا،
يتغيّر شعريَ كالأشياءِ
ولهذا،
أسكن زوبعةَ الأشياءِ.

VII

يحدث أن أستسلم للطّرقاتِ
فأهبطَ في قيعانٍ
وأجاورَ أغصاناً، أو أتعبَ مثلَ رمادٍ
بحثاً عن أشباهي ـ

مصباحٍ
يتحدّث مثل فضاءٍ،

عصفورٍ
يمزج بين أنينِ السّهم وصمتِ القوسِ،
كتابٍ
يُعلن أنّ الحلمَ يقينٌ، والنّار سماءٌ ممطرةٌ،
رَعْدٍ
لا يقصف إلّا من أُفقٍ يتبجّسُ رفضاً،
تيّارٍ
يروي هذياني
للشطآن، للُجّ البحْرِ،
فضاءٍ

يخلط شمسَ الشعر بشمس الله،
طريقٍ
تبقى حلماً. . . /
أشبْاهي -
تصعد بين المعنى وحروف الظلّمة في ممحاةٍ
وتغنّي للممحاة وتمحو
تمحو/

أشباهي -

لا أعرف، إن كنت أحبّ دمشقَ، وأسأل: هل
أكرهُها، حقاً؟
شجرُ الصّفصاف كساني
ببياض الحزن، وسوّى
جسدي بجعاً/
ماذا يفعلُ هذا العُنُقُ الجامح، كيف يميلُ؟
وبحيرات الحبّ اضطربَتْ،
أو كادت تنضبُ، ماذا
يفعل هذا العُنقُ الذّابلُ، أين يميلُ
والماء شحيحٌ، والغيمُ قليلُ؟

في قسماتِ شوارعَ ترقد تحت غبارِ السيّافينَ، أسائل عن أشباهي
في رائحة الحزن الشّاردِ خلفَ زقاقٍ
في صمت عجوزٍ تومىء أنّ الموت قريبٌ
في جرحٍ/جسْرٍ بين سواعدَ، بين قلوبٍ
في رؤيا
تبقى نوراً وفريسةَ نورٍ،
أبحثُ
عن

أشباهي ـ

(فلماذا تسأل عني، يا هذا الباحثُ، بين حروفٍ
أو خلفَ شعارٍ؟)

أشباهي، ـ
لتكن كلمات الشّاعرِ ضوءاً،
ضوءَ الحاملِ عبء الأرضِ، ويبقى
في الجذْر الأعمق في أقصى موْجٍ
لتكن سفَرَاً
يترصّدُ كلّ مهبٍّ،
ويخالِط نبضَ الكونِ، ويبقى
في الجذر الأعمقِ، في أقصى موجٍ

لتكن جسَداً
لمحيطِ الهَجْسِ بوجهٍ آخرَ
للإنسان ـ بوجه آخرَ
للتكوينِ/

شقاءٌ
أن تتفتّح، أو أن تكبرَ، أو أن تهجم نحو الضوء، وموتٌ
أن تبدعَ أو أن تحيا

في أحوال ثمودٍ/

ولهذا،
أعذر وجه ثمودٍ
أعني المجذوبينَ إليهِ
الطّافينَ عليهِ،

وأقول لهم، باسم الملعونين الخلّاقينَ من الشعراءِ:
ما أقسى أن نعرف أو أن نفهمَ كلّ الأشياءِ.
ولهذا،
لا يتركني رفضي
ودمشق الأخرى، لا تتركني.

VIII

أشجارٌ ترسمها أقواسُ ربيعٍ يحلمُ،
واكبَنْاها
أَيْدٍ تمنحُ للعطشانِ الماءَ، وأخرى
تهدمُ،
واكبَنْاها
وكأنّ بيارقَ تخرج من أشلاءٍ،
واكبنْاها

وكأنّ غيوماً تتدلّى مثلَ ثمارٍ،
واكبناها/

هل يصدقُ هذا الرملُ؟ أيكفي
أن يأتيَ فجرٌ يسأل عنّا،
حتى نخرجَ من أسوار الظلماتِ، أيكفي
أن نزرعَ حتى نجني؟

ولهذا،
لا يتركني رفضي
ودمشق الأخرى لا تتركني
ولهذا،
يحدث أن أستسلم للطرقاتِ
فأهبطَ في قِيعانٍ
وأجاورَ أغصاناً
أو أتعبَ مثلَ رمادٍ،

يحدث أن أعطيَ أشكالي
لكتابٍ أو مفتاحٍ،
وأقول لبيتِ المجهولِ:

«سلاماً
سنُجاسدُ هذا الزمن الآتي،
ونخالط قلبَهْ
وسنكشف معدن كلّ شرارٍ
ونشقّ، غداً، والآن، طريق الرغبهْ».

يحدث أن ألقى في الشارع وجهاً
مملوءاً جثثاً
من أحلامٍ أو أعمالٍ أو كلماتٍ
يدنو
ويناديني
ويحرّضني:
«نحن التيارْ
إن كان مدانا من ورقٍ
فخطانا فاتحةٌ للنارْ».

يحدث أن أتقاطعَ مع ميدانٍ
كالعَرْشِ،
ومع خلفاءٍ
مع عمّالٍ للخلفاء وأنصارٍ،

وأرى كيف يكون التّاريخ جليداً
أو زرنيخاً،

يحدث أن أتحوّل/أحيا
نِسْغاً برّيّاً
أمشي في حَشْدٍ
يتحرّك، يقطع ما وصلته الرّيحُ، يغذّي دمَهُ
ودمَ التّاريخ الجنسيّ
ويعيد لحنجرة الأيّام الدّهشةَ، والصّوت الوحشيّ.

. . . ودمشق الأخرى لا تتركني
أخذتها الرغبةُ في شفتيّ، وفي فخذيَّ، وفي حنجرتي
أخذتها لغتي،

سيروا معها ـ
بِاسْمِ الأشلاءْ
لبست ورداً أحمرَ في ساحاتٍ مُهدت
في ساحاتٍ لم تمهَدْ/
أتحسّون بموجٍ يطغى؟
بدمٍ
يغزو يَبَس الأرضِ،

ويقرأ فاتحة الأنواءْ؟

سيروا معها ـ
ما أجملِ هذا الكونَ الناشىء في الخطواتِ:
الأرضُ سريرٌ
والأشياءُ نقيضُ الأشياء.

IX

أصْغوا
ها هي تقترب الخطواتُ، وأصغوا
لتويجاتِ جذوعٍ
سمّوها زهَرَ الآلامِ، وقولوا
هذا وعْد الأرض، وأصغوا ـ
هي ذي الأصواتُ تعانقُ صوتي:

«يا وجه الإنسان الطالع كالزلزال، سلاماً
ألهمْنا
وأبحْ للزّلزالِ مَدانا
خذنا
نحن الوجه الآخر من هذا الوقت المرفوض، وأَقْنِعْنا
أن جمال الأرض الإفراطُ

وأن الحكمة ربٌّ من ورقٍ
أقنعنا
أنَّ النجمة ماتت، والعالم يهذي
وتخطَّفْ
هذا الشاعر، واخلبْهُ
يا هذا الوعد المرسوم كجبهة طفل يولد باسم فضاءٍ أبهى،
واصحبْهُ
في كشْفٍ
كشفٍ،
كشفٍ...».

X

إن كنتُ أَرجُّ التاريخ، وأخرجُ من ملكوت الآباءِ
فلأنّيَ طفلٌ أمّيٌّ
يمشي في قافلة الأشياءِ
يتعلّم سحرَ الأشياءِ

طفلٌ يتهجّى سيماءَ الأرض، ويصرخ: خذني
يا لُجَّ البَشرِ، الولَهِ، اغسُلْني

في برْق فضائك، وامنحني
أسماءً،
وامْحُ، وجدّدْ
أسمائي.

هوذا جسدي
مكسوّاً بالأنقاضِ وكلّ غريبٍ، يمضي
وتواكبهُ أسماكٌ
وبحيراتٌ
وتواكبهُ أنهارٌ، كالصّيف تهرول نحو خريفٍ / يمضي
وتواكبه
أعراسٌ،
ويواكبهُ

أحمدُ حنّا يوسف مريمُ -
قل للضّارب جذر العَوسج: أهلاً
قل للمأخوذ بقبضة هذا المعول: أهلاً
قل للفاتن والمفتون، وكل جمالٍ: أهلاً/

ويواكبهُ سحر الأشياءِ
ويقولُ لُجّ البشَر - الولَهِ، اغسُلْني

في بَرْق فضائِكَ، وامنحني
أسماءً،
وامْحُ،
وجدِّدْ
أسمائي.

(٢٥ تشرين الأول ١٩٧٦)

قصيدة البهلول

(موجز أخبار):

تدخل الشمس إلى بيتي فراشاتٍ وتمضي
كلماتٍ
ولأيّاميَ في مُفترق الماء حنينٌ:
كيف أُحيْي زَهَراً
يجتاحه الرملُ؟ وهذا

جسدي يختلج الآن كراعٍ بدويّ،
لابساً وجه الحقولْ
يكتب الشعر على العشب، ويلقي
يأسه الطيّبَ في ماء الفصولْ، -

لا يريدُ الشَّعَرَ السّاقطَ من رأس خريفٍ
أن تراه امرأةُ الصيّفِ، ويهْوى

قمراً يُولد من تلقائه
بين ساقينِ. . . ويهوى
أن يرى في عُنُق العصفورِ نَهْراً
ويرى العالم في وجه الحسينْ،
ويرى ناراً على النّهر، وملاّحاً، وتلويحَ ذراعْ
ما على البهلول لو سَمَّى يديه شاطئينْ
ما على البهلولِ، لو يَلبسهُ النّهرُ، ولو كان الشّراعْ؟

II

(تفاصيل):
خرج البهلول يسْتقرئُ موت الظّلماتْ
هوذا يرجع والنشوة تمحو الخطواتْ
يُجلس الموتَ على شُرفتهِ
ويُريهِ
كيف يستعرضُ جيش الرّغباتْ، -

إنها أحلامه تكتبهُ:
أدخل الآن إلى السّوق خفيفاً
ورقاً تجرحه الرّيح، وأصغي

للخطى تَسْترق الشمسَ، لأصحابيَ: ماذا
تكشف النّحلةُ من أسرارها
حينما تدخل في الزّهر، وتلقي
رأسَها فوق تُويْجٍ؟
وهلِ الزّهرةُ ماءٌ أو شرارْ؟
ولماذا تلد الشمس الغبارْ؟

إنها أيّامهُ تقرؤهُ:
أخرج الآن إلى الشارع حلماً ـ
أن يكون الشعراء
هالةً حول جبين الفقراء.
أخرج الآنَ إلى الشارع جرحاً ـ
ألدَمُ الغامر تعويذٌ وتِيهُ
وعلى الجدرانِ تاريخٌ ينامْ

الذي يقدر أن يفعله الشعر، ورجلاهُ قيودٌ
وعلى عينيه أسوار الظّلام؟

أتراهُ يهدم السّورَ بغصنٍ من أراكٍ؟
ما الذي يقدر أن يفعله الشعر لتاريخٍ ينامْ؟

إنها أشلاؤه تسأله:
ليس من ينطق إلّا
شُرَطُ الحجّاجِ/هل أعطيكَ حلماً؟

. . . . . .

(بين أن يرتفع الحجّاج سيفاً
ليشيدَ الدوّلة العظمى، وتبني
لغة الحلّاج كوخاً،
أطرح السّيفَ وأختارُ. . .) لماذا

كلّما حاولَ أن ينبض صدقاً
كذّبْته الكلمات؟
ولماذا
يَحْرِفُ الينبوع مجراه لكي يبقى وفيّاً؟

إنها الأمّة ترتاحُ إلى أشلائِها
وعلى الجدران تاريخٌ ينامْ
ليس هذا وطناً/هذا رُكامْ.

ما على البهلول، لو يصرخ في هذا الظّلامْ:
أيّها العالم، كفّاي عصافيرُ وكفّاك مَصيدَهْ
إنني أخرج من وجهكَ، كي أدخلَ في وجه قصيدَهْ.

ما على البهلول، لو غنّى وحيداً:
هوذا وجهيَ بين السَّابلَهْ
يتوارى
حينما تنفتح الدّربُ وتمضي القافلهْ
لا لما قلتَ وقالوا
بل لشيءٍ آخرٍ أكتمهُ،

كلّ ما أعلن أنّي أتوارى
في زحام السّابلهْ
حينما تنفتح الدّرب وتمضي القافلهْ.

III

(استطرادات):

ها هنا يروي تواريخ مَحَتْها
جثثُ الأطفال، يسقي
شجراً مات. وهذا
نَهرُ الأردنّ يستسلم للطّمي. بماذا
يعِدُ الطّمْيُ؟ الينابيع جِراحٌ
والفصولُ انكسرتْ...

سكِرَ التّاريخ في حاناتنا
هوذا يخرج محمولاً. شيوخٌ
وتماثيل نساءٍ.

إنها جائحةُ الرمل، اقتلاعٌ:
أتُرى نضحك أم نبكي، ولكن أيّ فَرْقْ؟
آهِ، ما أضيق بغداد وما أنأى دمشقْ!

ها هنا يرقدُ: تأتي جُثَثٌ
ترتمي قُدّامه عاريةً،
وإذا استيقظ جاءت جثثٌ
وارتمت قدّامه عاريةً/
زمَنٌ يكتبه القتلُ ـ اسألوهُ
اسألوا البهلولَ عن أيّامهِ
كيف تَستأصل جَذْر الذاكره
واسألوهُ:
قدَرٌ هذا المدى، أم رُقَعٌ
من ضبابٍ، أم غيومٌ عابرَهْ؟

يخرج الآن إلى السوق خفيفاً

ورقاً تجرحه الريحُ ويُصغي:
يجلس الهدهدُ في حضن سليمانَ/سليمان ابتهالٌ
يتقرّى جسدَ الغيبِ/وبلقيس عرارٌ.
وقناديلُ، وسِحرٌ عربيٌّ
يتقرّى جسدَ الشهّوة، والهدهد عينٌ حائره
لا أرى غيرَ وجوهٍ من زجاجٍ
لا أرى إلّا الدّم ـ التّيهَ، وإلّا
قفصاً يملأ سطحَ الدائره،
آه لو يُقلب هذا السطّح، لو تُكسر هذي الدّائره.

ما على البهلول لو غنّى وحيداً:
لهبٌ يقسو على حزنيَ/حزني
حطبٌ رطْبٌ،
تقاطيعي تدلّتْ
صوراً مِلءَ الدّخانْ
لم يعد يشغلها وجه المكانْ
يغرق الآخر فيهِ، وأنا
عابرٌ يشغله وجه الزمانْ.

IV

(مقدمات لأجوبة):

ما الذي يرتكب البهلولُ إن طالعَ تاريخاً ونادى:
أيّها الفتْكُ؟ وهل يأثم إن سمَّى سماءً
باسمِ شخصٍ؟

ولماذا، حينما يرتحل البهلول في أوجاعهِ
ويقول: الخاصرهْ
شُرُفاتٌ...
ويرى أحزانه منشورةً
كالمناديل، ـ لماذا

حينما تتكىء الشمس على جبهتهِ
ويرى ما ظنّه التكوينَ مأوى عنكبوتٍ، ـ ولماذا
حينما ينقصف الماضي كغصنٍ في يديهِ،
يجفل النّاس ويجرون كريحٍ،
ويفيئونَ إلى سُلطانهم؟

ما الذي يرتكب البهلول إن شاهدَ جندياً ونادى
أيها القيدُ؟ وهل يأثم إن سمّى الكتابْ

باسمِ جلّادٍ؟ وماذا
لو سقى أحزانَه ماء عليٍّ
وروى للماء تاريخ الترابْ؟

ولماذا يخرج الناس إلى سلطانهم
ويغيبون، إذا ما
دخل البهلولُ في طقس أغانيه، وغابْ؟

٧

(الموت):

سقط البهلول في تُفّاحةٍ
جذبتها الكلماتْ
كان عشبٌ يرسم اللّون، وماءٌ
يقرأ الخطّ، وكانت
شفةُ الأرض التي تجذبهُ
تتهجّى الحركاتْ، ـ
ـ كيف هيّأتَ لأيامكَ بيتاً
ولففتَ الأعمدهْ
بالمصابيح؟ سلاماً
أيها البيت الذي يُرفع بين الأوردهْ

وسلاماً،
أيها البيت الذي يُهدَم بين الأورده.

VI

(شاهدة على قبر البهلول):

لغة البهلول في محرابها
وعلى سرّتها قفطانُ ليلٍ ـ
لجأت حيث تكون الأبجديّه
غابةً تسكنها ريحٌ خفيّه.

(شاهدة ثانية):

دخل البهلول في فصل النّباتاتِ، فأحيا
وَلَهَ الأرضِ،
وكان المهرجانْ:

ورَقُ الصفّصاف منديلٌ وللرّيح يدانْ ـ
إنه البهلولُ في أعراسهِ
ملِكٌ ـ
كرسيّهُ الأرضُ وتعطيه الرّياح الصولجانْ.

(٢١ كانون الأول، ١٩٧٧)

قصيدة بابل

I

في رأس امرأةٍ من قحطانَ يطير حصانٌ
في رأس حصانٍ طَرْواديٍّ، عربيٌّ يهذي:
«سترى أحشاءك فوق رغيفٍ
سترى زمناً يتقدّمُ قبراً قبراً...»

II

دار المجنونُ يُسائل: أين الشمس، وأين الأفقُ، وماذا يحملُ
هذا الآتي:
عُنُقاً أو سِكّيناً؟
يسألُ: كيف أظلّ شرارةَ خَرْقٍ؟
من أينَ أتيتَ؟ وكيف؟ وماذا؟
أرضكَ مملكة التّدجينِ، وأنتَ عَصيٌّ
أتظلّ عصيّاً؟

يبدو أنّ الأشياءَ قطيعٌ
والأفكارَ ذئابٌ فِضّيهْ
قابيلُ هنا، هابيلُ هنالكَ لم يُدْفَنْ
والموتى شَرَكٌ
والأحياءُ سديمٌ...

هل تبقى تخبزُ هذا الرّملَ وتحيا
في طُحْلبِ هذا البُرْجِ؟
مَزيداً
من جَمْرٍ آخَرَ،
من شهَواتٍ أخرى...
صَدِّقْني ـ أقدر أن أتقدّمَ فِي منشارٍ
يا هذا الجذع اليابسُ، لكن
أعمل كي أتقدّمَ فِي طوفانٍ...

مَن يتقدّمُ؟ صاحَتْ
أجراسُ عُصورٍ
تتلاطمُ في حنجرةٍ بحريّهْ ـ

حسناً، يا هذا البحر، ورفْقاً

يا أدواتِ اللّغة القُرشيّهْ.

يبدو أنّ الأشياء قطيعٌ
والأفكارَ ذئابٌ فضِّيهْ،
من أين أتيتَ، وكيف، وماذا؟

مُتَّهَمٌ،
حتى حين تقول اللّيلُ فراشٌ
والشمس امرأةٌ

والحوض يحنّ لماءٍ لا يعرفهُ
والماءُ يحنّ لحوضٍ لا يعرفهُ

مُتهَمٌ
حين تقول الفاتح ليلٌ حيناً
والخاتمُ فجرٌ، حيناً،

حين تقول الحزنُ ربيعٌ
والصّفصاف دموعٌ،
متّهَمٌ

حين تجاهِرُ: بابلُ جرحٌ
يتدفّقُ من دمِهِ الفقراءُ
وبابل فَقْرٌ
يتناسلُ في دمهِ الشعَراءُ
وبابلُ سلطانٌ
والتّاجُ نبيٌّ أو تنّينُ...
متّهمٌ

من أين أتيتَ، وكيف، وماذا؟
أتموت وأنتَ جَنينُ؟

هوذا التّاريخُ - بقايا جُثَثٍ
والأيّام تهرولُ في كثبان الرّمل: «تفيّأْ
حلُماً،

وانسجْ
لِمداك، عباءةَ حبٍّ، واجْنَحْ...»

آفاقٌ جانحةٌ، وصحارى
تهذي
ونساءٌ في العَتَباتِ يَلدن الحسرة: «أهلاً،

لكن، ماذا نَفعلُ،
أيدينا
ليست
أيدينا
نحنُ المقتولاتِ، وكلّ جنوحٍ يحيينا».

III

قال عليٌّ: «هذي بابلُ...»
بابل قَفْزُ
حيث الكون فراغٌ ـ
مجروراتٌ ومفاعيلُ
شحّاذون على الطّرُقاتِ وشحّاذونَ على الشّرُفاتِ
يفترشون الغَسَقَ الطّالعَ في الأهداب وفي اللّهواتِ
عَرْشاً يتأرجح في لَبْلابٍ
ونخيلَ دماءٍ،

ألِفوا ريحَ الموت، وسالوا
في نَهر العالم جرحاً...

بابلُ أنتِ الشرُّ وأنتِ الخيرُ

وأنتِ مدارٌ
ودمي وهواؤكِ طفلانِ
يمحو الثاني دربَ الأوّلِ
يمحو الأوّلُ دربَ الثاني.

IV

يبدو أن الأشياءَ قطيعٌ
والأفكارَ ذئابٌ فِضّيهْ
من أين أتيتَ، وكيف، وماذا؟

قُمْ يا قيسُ، ترصّد ليلى
قل للنّخلة أن تؤويكَ، وأسْلِمْ
عينيكَ لوَسْوَسَةِ الأحلامِ:
ليلى صورٌ تتفتّح في أشكالٍ مخروطيّهْ
ليلى أقواسٌ ودوائر جنسيّهْ
قصبٌ عال للأحزانِ،
وبحرٌ أبيضُ للأوهامِ...

قُمْ يا قيس ـ التّاريخ رُكامُ
والحاضرُ وَحْشُ

تتلبّسه خِرَقٌ وعظامُ.

مُتَّهمٌ
حتى حين تقولُ الأرضُ امرأةٌ
وسواءٌ قلتَ العالمُ عرسٌ
أو قلتَ العالمُ قَشٌّ
مُتّهمٌ
وسواء جئتَ إلينا شرعاً أو جئتَ سِفاحاً
مُتّهمٌ -

(تُهَمي أنّيَ وجهٌ،
تُهَمي أنّيَ حُمّى،
تُهَمي أنّيَ أكشف عن جُرحي،

تُهَمي أنّي أرفض هَذا العصرَ، وأكتب
لَعْنَته الكبرى...)

متَّهَمٌ
في أحلامكَ، في خلجاتك، حين تروحُ وحين تجيءُ -
قُمْ، يا قيس، ترصّدْ ليلى...